بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله و صحبه, أما بعد فنزولا عند أمر استاذنا أحمد الريسوني الذي طلب مني إعداد ورقة تكون أرضية أولية للنقاش حول موضوع الحريات الفردية والجماعية فإنني أضع بين ايدي أساتذتي الكرام مايلي:

أولا أود التنبيه الى انني عندما بدأت أفكر في عناصر هذه الورقة حصل عندي تداخل بين الحريات الفردية والجماعية من جهة وبين موضوع التعايش مع غير المسلمين أو مع المخالفين عموما. ومرد ذلك الى أن التعايش هو الهدف الاسمى الذي يدعي كل طرف انه يريد الوصول اليه. لذلك ستجدونني أتحدث عن التعايش لأنه هو سبب طرح هذه المشكلات ولولاه لما كان للحديث عن هذه الحريات معنى ولا مسوغا اصلا.

1. الحاجة الملحة لطرح موضوع الحريات الفردية والجماعية:

إن الناظر الى حال العالم في هذا العصر يدرك من غير عناء كبير حجم التغيرات الهائلة التي شهدها فيه مقارنة بكل العصور الماضية. فبالرغم من أن البشرية كانت تتطور باستمرار إلا أن هذا التغير كان بطيئا وكان أيضا متوازنا بين جهات الارض الأربع فرغم وجود حضارات راقية في العصور الماضية كالرومان والفرس ووجود أخرى بدوية كالعرب و شعوب إفريقية الا ان التفاوت الذي بينها لم يكن كبيرا و كان سهل التدارك ولا أدل على ذلك من أن الحروب التي قامت بين المسلمين و الرومان لم يكن لهذا التفاوت فيها أي فارق كبير أو عامل حاسم فرغم مرور قرون متطاولة على خلق الانسان ووجوده على الأرض ظلت وسيلة الحرب الأساسية هي السيف والرمح والقوس و السهم و عوامل النصر كانت معتمدة بالأساس على العدد في المقاتلين و الخيل وعلى حسن التخطيط وعلى الشجاعة ويدخل فيها العقيدة الحربية ومدى إيمان المقاتلين بما يقاتلون من أجله. اما اليوم فان هذا التطور راكم في قرن واحد ما لم يشهده العالم طيلة قرون و أصبح الفارق الزمني بين دولة ودولة أخرى ولو كانت محاذية لها يمكن أن يقاس بسنوات ودهور. فهناك من وصل للقمر وهناك من لا يزال يتخبط في تخلف مادي يجعل من بلاده مجرد متحف تاريخي لمن أراد أن يطلع فيه على أحوال الناس في القرون الوسطى أو ما قبلها. ثم تطورت وسائل التواصل والاتصال في النصف الأخير من القرن العشرين حتى جعلت من هذا الكوكب المتباعد الأطراف قرية صغيرة لا تكاد تهب ريح سياسية أو فكرية أو اجتماعية في طرفها حتى تجد لها صدى في طرفها الاخر. فرحل أهل الجنوب الى الشمال ونزل أهل الشمال الى الجنوب وفرضت أنماط العمل والإنتاج على الناس التنقل والترحال وأصبح اختلاط الناس بجميع مللهم ونحلهم وألوانهم ولغاتهم شيئا طاغيا وأصبح أكثر تكررا و معاينة و مشاهدة من ذي قبل. بل أنه اصبح ضرورة من أجل تبادل الخبرات بالخبرات او بمبادلة هده الأخيرة بالخيرات و الثروات. وأصبحت معايش الناس وأرزاقهم لا تتم إلا عبر انتظامهم في سلاسل معقدة و طويلة للانتاج والتصنيع والتسويق والتكوين والتعليم بحيث لا يستطيع قطر ان يستقل بنفسه عن قطر ولا تستطيع قرية أن تستقل عن مدينة صاخبة فالكل يلتقي الكل والكل يحتاج للكل.

ومع هذه الحال من الترابط والاختلاط باتت مسألة التعامل مع المخالف أشد إلحاحا وأكثر تعقيدا مما كانت عليه من قبل ولقرون عديدة. بل وزاد من حدتها تعدد الافكار والقناعات حتى داخل الملة الواحدة والديانة الواحدة والشعب الواحد بل والاسرة الواحدة. ولم يكن المسلمون بمنأى عن هذا الإعصار بل كانوا في مركز دوامته وفي بؤرة زلزاله باعتبار ان الحضارة الغربية الرائدة بنيت على أنقاضه وورثت صدارة العالم بعد حرب طويلة معه انتهت باستعماره وتمزيق أرضه ونسيجه ووحدته السياسية والفكرية والدينية.

خرجت من رحم هذه الصراعات ممانعة فكرية تروم الحفاظ على الهوية والدين بعد ان استهدفهما المنتصر المتقدم بالاستهزاء والسخرية والتنقيص وكانت هذه الممانعة موجهة للغريب المستعمر في أول ثم ما لبثت أن أصبحت في مواجهة مع بعض من أبناء جلدتها ممن أثر فيهم تقدم الحضارة الغربية وانبهروا بها وكان من هؤلاء المخلصون الذين يريدون التقدم لبلادهم وأمتهم وكان منهم المغرضون وكان بين الفئتين طيف عريض متعدد من الأفكار و المناهج والنيات والمقاصد عجنتهم جميعا رحى السياسة وطواحين الحيرة. حيرة كحيرة أم أمكبلة في أغلالها تريد استنقاذ وليدها من وحش مفترس فلا تدري ما ذا تفعل و من أين تبدأ. ولما انقشع الاستعمار عن هذه الدول خلف في الساحة الفكرية والسياسية

تقاطبا حادا لم تعهده الأمة من قبل واختلافا كبيرا في الافكار والقناعات جثا بظلاله على السياسات العمومية والمناهج التعليمية والحياة الاجتماعية ثم ما لبث أن بدأ يزحف على القوانين المؤطرة للأحوال الشخصية والأخلاق العامة وهو الان في صراع مرير من أجل كسب مساحات جديدة في ميادين أخرى اجتماعية و دينية.

هذا التدافع فرض على العلماء والفقهاء والمفكرين الاسلاميين إعادة النظر في أوراقهم التي بعثرت بعد ان كانت مرتبة منذ قرون لا يسائلها ناقد ولا يشكك فيها مشكك. فمنهم من جمد تحت ضغط هذا الهجوم الكاسح ومنهم من قام منهم بالمراجعات ولا يزال ومنهم ومنهم ومنهم....

وكان هذا التدافع مقتصرا على النخب الفكرية والسياسية ثم ما لبث مع تطور وسائل الاتصال الحديثة -التي صارت في متناول كل الناس- أن نزل إلى جميع طبقات المجتمع وفئاته فصار لزاما على العلماء والمفكرين أن يبينوا للناس ما اختلفوا فيه مراعين في ذلك أمرين اثنين. أولهما حفظ الشريعة من أن ينالها التحريف وتبليغها كما هي للناس وثانيهما مراعاة التيسير والتجديد بحسب ما تقتضيه ظروف العصر الحديث.

2. معالم رئيسية في منهج تعامل الإسلام مع المخالفين

لا شك أن رسالة الاسلام - وهي القران الكريم الذي أنزل على نبي الرحمة محمد ﷺ - جاءت فيصلا وفرقانا بين الحق والباطل وبين التوحيد والشرك وبين العدل و الظلم وبين مكارم الأخلاق وسفسافها. يقول الله تعالى في سورة الفرقان " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" ويقول عز من قائل : " قل يا ايها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين" .إلا انها جاءت مع هذا بالرحمة والعدل والإحسان وأمرت أتباعها بدعوة غيرهم للاسلام بالحكمة و الموعظة الحسنة فقال الله تعالى : " و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" وقال : "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن" وقال أيضا : " وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه " وأمرهم أن يبروهم ويقسطوا إليهم ما لم يقاتلوهم و يخرجوهم من ديارهم فقال تعالى : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم" وحتى في هذه الحالة فان الله نهى عن ظلمهم يقول الله تعالى : " ولا يجرمنكم شنئآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى" بل إن رسول الله لما فتح مكة قال لمن حاربوه و آذوه اعواما طويلة "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

ومعلوم أن هذه الاخلاق التي أمر المسلمون بالتخلق بها مع غيرهم لا يتصور وجودها إلا بمخالطة غير المسلمين و معايشتهم ومساكنتهم. ولا يمكن بحال تصور مخالطتهم بالمودة والرحمة ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة أيضا متناسبا بحال من الاحوال مع قمعهم وإكراههم على ما لا يحبون أو ما لم تنشرح له قلوبهم بعد.

ومن هذا المنطلق كانت تعاليم الاسلام ممثلة في القران الكريم وسيرة النبي ﷺ في التعامل مع غير المسلمين أو المخالفين عموما مبنية على أساسين اثنين هما الرحمة المؤلفة للقلوب والعدل الذي يمنع الحيف ويحمي الحقوق. فرأينا كيف تعامل النبي ﷺ مع اليهود ومع المشركين بعد الفتح ورأينا أحكام أهل الذمة من أهل الكتاب وغيرهم وكيف ان الاسلام حفظ لهم حقوقهم فحرم دماءهم و أموالهم وأتاح لهم ممارسة شعائرهم الدينية سواء كانت عبادية كالصلوات او تعاملية كما هو الشأن في الأحوال الشخصية فقد أعطاهم الحق في تصريف أمورهم بحسب ما تقتضيه شعائرهم وعقائدهم. وفي حالة الحرب نهى رسول الله ﷺ عن قتل غير المحاربين منهم ونهى عن قتل رهبانهم وهدم صوامعهم وكنائسهم وبيعهم. وهذه أصول عامة في احترام المخالف ومعاملته بالحسنى ما لم يتعد ويظلم.

3. الأصناف التي نشترك معها وتشترك معنا في الأوطان:

بعد أن كان الامر في السابق لا يعدو أن يكون مقتصرا على تعايش ما بين المسلمين من جهة وأهل الكتاب أو المجوس من جهة تحت حكم اسلامي. تعدد هذا الطيف في العصر الحاضر وتعقد الإشكال فانضاف الى هؤلاء الاصناف صنف اخر لا

دين له إلا عقله وهواه لا يؤمن بحدود لحريته. و صنف آخر هم من يسميهم الاسلاميون في العصر الحاضر علمانيين فهؤلاء يرفضون ان يكفرهم غيرهم بل يحسبون كل منتقد لهم مكفرا لهم. كما أنهم ينكرون أشياء معلومة من الدين بالضرورة وصار لهم أتباع وشوكة و احزاب تساهم في التشريع وسن القوانين المؤطرة للمجتمع ان على مستوى الاحوال الشخصية او على مستوى الفضاءات العامة. فهم يطالبون بحرية العقيدة وحرية تغييرها ويطالبون بالزواج المدني وتقييد سن الزواج و اباحة الافطار في رمضان وبإبطال القوانين المجرمة للزنا وشرب الخمر ويطالبون بتغيير المناهج الدراسية بل ومنهم من يطالب بحذف المواد الدينية وخفض صوت الأذان أو حذفه. كما يطالبون بتنحية الدين عن الشأن العام. ومنهم من يقول ان القران و احكامه لا تصلح لهذا العصر ويعتبرون استقاء بعض القوانين من الدين نوعا من التعسف والظلم في حقهم.

4. أسئلة مهمة تثار في سياق النقاش حول الحريات الفردية والجماعية و أحكام التعايش بين المسلمين وغير المسلمين أو مع المخالفين عموما ان كانوا مواطنين

- هل تتناقض الحريات الفردية والجماعية مع الاسلام وهل يكفلها الاسلام حتى للمخالفين لتعاليمه ؟
- نهى الاسلام عن هدم المعابد الخاصة بالديانات الاخرى عند فتح بلدانهم فهل يجوز بناء معابد جديدة لهم ما داموا يتكاثرون ويتناسلون ولهم علينا حق الحماية وتوفير الخدمات وهل تبنى معابدهم من أموال الدولة المسلمة (بيت المال أو الخزينة العامة)
- هل تجوز تمكينهم من الولايات الكبرى كالرئاسة والملك او الوزارات المهمة والقضاء
- هل يجوز تمكينهم من بناء وسائل ترفيه خاصة بهم ولو تضمنت بعض المحرمات عندنا كالكازينوهات الخاصة بالقمار و ومحلات بيع الخمور وحفلات الرقص والغناء بل ان البعض يمدد هذه المتطلبات الى دور الدعارة ايضا ويدعوا إلى تقنينها. وقد سمعت بمعلومة تاريخية لست متأكدا منها مفادها انه في بعض الولايات الاسلامية قديما كانت تجعل لغير المسلمين محال خارج التجمعات السكانية يلجأون اليها لممارسة ما تمنعه الدولة الاسلامية على المسلمين.
- هل يجوز السماح بالسباحة مثلا في الشواطئ لمن لا يرى وجوب الحجاب او ممن لا يدين بديننا اصلا مع ما يرافق ذلك من كشف للعورات وإفساد لأخلاق المسلمين
- هل يجوز السماح يالافطار العلني في رمضان
- الى أي حد يمكن ان تتدخل الدولة في احترام الذوق العام والأخلاق العامة وذلك من حيث اللباس والاختلاط وشرب الخمر والمخدرات باعتبارها عند اقوام معينين داخلة في الحريات الفردية
- هل يجوز ابطال القوانين المجرمة للزنا أو ما يسمى بالعلاقات الرضائية وكل ما يتبع هذه الامور من أولاد غير شرعيين يطالب العلمانيون وغير المسلمين بالاعتراف بهم. وما ذا لو طالبت فئة من الناس تعيش بين المسلمين بتقنين العلاقات المثلية وما الى ذلك؟
- وماذا عن تطبيق الحدود كحد السرقة وشرب الخمر و الزنى؟ هل تطبق على غير المسلمين
- وهل نفرض العمل بنظام الارث الاسلامي على العلمانيين الذين لا يقبلون به أو نمنعهم من ذلك وما ذا يكون الحال لوكانوا أغلبية في البرلمان و سنوا قانونا في الارث يخالف أحكام الارث الاسلامية.
- وهل يجوز فتح الباب لصاحب كل ملة أن يدعو الناس أليها ونجعل له حصة معلومة من الوقت في الاعلام العمومي والفضاءات العامة كالقاعات الرياضية والمسارح التي بنيت بأموال الدولة.
- ماذا عن التعاملات ألمالية هل يجوز أن نفرض علي من يخالفنا - ان كان يشترك معنا في الوطن - نمطا معينا من العقود في البيع والشراء و القروض. وبالمقابل هل يمكن للدولة المسلمة إن مكن (من التمكين) للمسلمين فيها إتاحة التعامل بمثل هذه المعاملات لمن يرغب بها بدعوى الحرية الفردية.

5. **نصوص يدعي العلمانيون والغير المسلمين انها تتنافى مع الحريات الفردية والجماعية وتبين أن الاسلام لا يؤمن بمبدأ التعايش مع المخالفين له:**

- حديث النبي ﷺ " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا أله إلا الله"
- قول الله تعالى " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة"
- " الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة"
- "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون "
- " وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة "

وأخيرا اعتذر عن ما اعترى هذا النص من الاستطراد وربما من تشتت في افكار الموضوغ المطروح ولكن عذري في ذلك انها التجربة الثانية لي في الكتابة وان المجموعة التي أعرض عليها هذه الورقة سميت باصحاب وتلاميذ الشيخ أحمد الريسوني فلا ضير ان كنت أقل هؤلاء التلاميذ شأنا وأزجاهم بضاعة وأوسعهم صدرا لنصيحة أو تصويب أو توجيه.

شاهير عبد الرحمان